الفصل الثامن

شَرَوْرَى وقُرَيَّة

قضيت الفترة بين عودتنا من رحلة روافة في ٢٨ يناير ومساء الأول من فبراير، عندما غادرنا تبوك نهائياً لبدء المرحلة التالية من رحلتنا، في أنشطة داخل الواحة وحولها التي سجلناها في الفصول السابقة. وكان آخر صباح لنا قد خُصص لزيارة رجوم شوهر، ومنها عدنا في وقت ملائم لتناول آخر غداء في بيت الضيافة مع علي ثروت، الذي سوف أتذكر دائماً مساعدته وكرم وفادته بالشكر والامتنان.

وكنا في منتصف ما بعد الظهر عندما خرجنا من تبوك على درب عادي للسيارات على طول الجانب الغربي من سكة الحديد، ولدينا فكرة عامة في قضاء الليلة عند سفح منبر شرورى، إلى الشمال تماماً من تبوك. وبعدما خرجنا بحوالي أربعة أميال عبرنا مصرف النصيفة الذي يمر تحت الخط بعبّارة، وبعد أن سرنا أميالاً قليلة دخلنا في حوض المحتطب الواسع، والذي يبلغ عرضه عدة أميال مع سبخات طينية متفرقة على جانبي سكة الحديد، تأتي السيول من المعيسى

والبقار والغويل (العويند) ويستوعبها هذا المنخفض، وفي نقاط كثيرة كسحت المياه السدود الترابية للطريق الدائم، وتركت قضبان سكة الحديد معلقة فوق الثغرات، على الرغم من أنها ما زالت متماسكة بعد خمسة وثلاثين عاماً من عدم الاستعمال.

وبعد مغادرة تبوك بنصف ساعة وصلنا محطةَ المحتطب، وهي مبنى وحيد من أربع غرف، مشيّد بصورة جيدة من الحجارة الرملية المشذبة، مع قليل من البيوت الدائرية البسيطة البائسة، ولا يوجد بئر هنا، ولكن الصهريج المبني تأتيه دائماً إمداداته بالمياه بسكة الحديد من تبوك، لتفي احتياجات الموظفين والقاطرات عندما كان الخط في الخدمة.

وتحتل المملحة (أو حلة الملح) الجزء الأسفل من الحوض الكبير، الذي يمتد متعارضاً مع الخط. وكان هناك علامات على نشاط البدو في أعمال الملح، ذي اللون الرمادي - البني ولا يبدو أنه جيّد النوعية، وكان لا يزال في إمكاننا رؤية محطة تبوك (وأشجار النخيل)، ربما على بعد اثني عشر ميلاً أو أكثر باتجاه ١٤٤ درجة، في حين كان منبر النبي صلى الله عليه وسلم شمال - شمال - شرق (٢٠ درجة)، على الرغم من أن طريقنا كان لا يزال ممتداً على طول الجانب الغربي من الخط باتجاه - شمال - شمال - غرب حتى المحطة

القادمة، وهي محطة الحَزْم، وقبيل أن نصل إليها عبرنا قناة وادي ضَمّ الضحلة الواسعة، وهي شريان التصريف الرئيس لوسط حسمى التي كانت تشتهر بأنها تحتوي على ما لا يقل عن تسعة وتسعين رافداً، وتمر تحت الخط بصف طويل من الفتحات لتدخل في سبخة طينية شاسعة تمتد حتى حافة تلال شروري، وهناك من السلسلة الطويلة لتلال عاجات الصغيرة نحو اثني عشر منها على الجانب القريب من القناة.

وكان المنبر يقع الآن للشرق منا تقريباً (٧٣ درجة)، بيد أننا لا نزال مضطرين للاتجاه شمالاً حتى نجد طريقاً أكثر صلاحية وملاءمة عبر أرض شروري المرتفعة. كانت محطة الحزم مثل محطة المحتطب بقدر كبير، وهنا يعبر الطريق الخط، ويسير موازياً له على الجانب الآخر في سهل ثابت من الحصى، الذي لا يزال تظهر به بوضوح تام عشراتُ الآلاف من دروب الإبل في طريق الحج القديم، إن اتساعه يزيد عن نصف ميل، وهذا يكفي لألف من الإبل أن تسير جنباً إلى جنب، ويستطيع المرء أن يتخيل بسهولة من هذه الدروب الملتوية قليلاً من صور جيوش الحجاج في العهد القديم وهم يندفعون بقوة للأمام في أعدادهم الضخمة يطوون ببطء -ولكن باستمرار- آلاف الأميال التي تفصل دمشق عن مكة، بيد أن عقلي كان مشدوداً نحو شخصيةٍ واحدةٍ فقط من بين كل هذه الحشود المتدفقة عبر القرون

على طريق الحج متوجهة لعبادة الإله الواحد الحق في حرمه المقدّس وزيارة مسجد نبيه ﷺ ؛ تلك كانت شخصية فريدة يُعد كافراً في رأي جميع من ركبوا معه في تلك الأيام، ومع ذلك ظل موقراً بشكل غريب من الرجال الذين كانوا يستطيعون دخول الجنة بذبحه ؛ وهو الذي كتب عليه أن يقضي عامين في محن وابتلاءات فرضها هو على نفسه ليحرز قدراً من الخلود نادراً ما يمنحه العرب بتوجسهم الطبيعي من الأجنبي في ديارهم ؛ ذلك هو داوتي الرجل الفريد الذي سمي بحق " خليل " صديق أعدائه .

وعندما انحرفنا مبتعدين بالتدريج عن دروب الحجاج ، وصلنا خلال خمس عشرة دقيقة تقريباً إلى الحافة العليا لسبخة طينية كبيرة ولكنها غير مستوية تسمى قعل الحرضة في حوض واسع لجبال عاجات توفر ممراً إلى داخل جبل شروري ، في هذه النقطة كنا قد قطعنا خمسة وعشرين ميلاً تقريباً من تبوك ، والآن استدرنا تجاه الجنوب - الشرقي من دربنا الشمالي بشكل أو بآخر نحو منبر النبي ﷺ ، ونحن نسير بمحاذاة الجانب المرتفع من قناة شعيب الحرضة الضحلة ، وبعد الغروب مباشرة توقفنا للصلاة ، ثم واصلنا السير في الغسق نحو هدفٍ بدا أنه يبتعد عنا كلما دنونا منه . عندما أطبق الظلام علينا كنا قد وقعنا في شرك متاهة لا أمل فيها من الوهاد الصغيرة ، والوعرة ، والحادة التي تمنع الاقتراب من الجبل المقدس ،

وفي حوالي السابعة والنصف مساءً قررنا أن نخيم على أرض مرتفعة تطل على وهد عند سفح المنبر، وهنا قضينا ليلة بائسة بالكامل، بلا نار، بلا شاي، أو حتى عشاء، والأسوأ من هذا كله، بلا دليل، فأرضيت نفسي بغليوني ومذياعي الذي جاءني بأخبار العالم الكبير، البعيد الآن عني بكثير، في بقعة لم يزرها أبداً من قبل بكل تأكيد شخص "متحضر"، مع احتمال استثناء شخص واحد هو أمريكي مجهول، وهذا الشخص لابد من أنه قد زار هذا المكان إما قبلي أو بعدي بفترة وجيزة، لأن تقريره عن احتمال وجود بترول ومعادن في منطقة المنبر قد أدى إلى اجتماع مجلس من الخبراء حول الصخرة في أوائل عام ١٩٥٤م لمناقشة الموقف، ولكن نتيجة هذا الاجتماع لم تنشر بعد على الناس.

وألقت مشكلةُ عدم وجود دليل لنا ظلالاً كئيبة على مخيمنا، وسرعان ما أصبح من الواضح أن الرجل الذي جاء معنا بهذه الصفة كان ببساطة رجل شرطة في حاجة إلى من ينقله وهو في طريقه إلى ذات الحاج، وهي محطة الحدود على سكة الحديد، لقد كان يعلم الطريق بالفعل، ولكني كنت أريد رجلاً ذا علم بالمنطقة، وهي رغبة يجب عليّ الاستغناء عنها في الوقت الحاضر.

لقد استغرقنا حوالي ساعتين في الظلام لنصل إلى مخيمنا من سبخة الحرضة على الرغم من أن المسافة بينهما لم تكن أكثر من اثني

عشر ميلاً، حيث إننا قطعناها في ساعة خلال عودتنا في اليوم التالي.

عندما استيقظت وجدت كل شيء مرتباً ومعداً للانطلاق فوراً من هذه البقعة القاحلة، لا شاي، ولا فطور، وكل شخص بائس وتعيس إلا أنا، لقد هونت الأمر على نفسي بتدخين غليون أو اثنين بدلاً من شاي الصباح، وعند الثامنة -وبدون أن أنبس ببنت شفة- انطلقت فجأة في نزول المئة قدم المؤدية إلى أسفل الوادي ومن هناك صعدت، ببطء ومشقة، على الحافة الحادة الوعرة من ركام الحجارة المتساقطة والمتناثرة من سفح جرف حاد في القمة الحقيقية للجبل، وما كان يشبه من بعيد مسند القراءة قد تحول عن قرب إلى منحدر وعر ومرعب ربما بمسافة ٦٠٠ أو ٧٠٠ قدمٍ من قاع الوادي، والشيء الذي رأيناه من تبوك صغيراً قد أصبح جبلاً بحجم مخيف، وقد استغرقت ساعة للوصول إلى نقطةٍ على حافته الشمالية - الغربية بحوالي ٢٠٠ قدم أسفل القمة.

وكان من المستحيل تماماً عليّ أن أحاول تسلقه وحدي، وقد يستطيع متسلقو الجبال بلا ريب فعل ذلك، وأنا نفسي ربما وجدت طريقاً حول الجرف إذا كان عندي وقت غير محدود، ولكني توصلت إلى استنتاج وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يُلق خطبته إلى العرب والعالم من هذا المنبر على وجه التحديد. وعندما

كنت أجلس هناك على الرف الخطر، حلقت طائرة فوقي، لا يمكن رؤيتها في السُحب، متجهة شمال - غرب نحو دمشق.

وعلى مسافة بعيدة، كانت تظهر بصعوبة سلسلة الطَّبَيْق على حدود الأردن، وراء الأرض المرتفعة الشاسعة خلف مجموعة شروري - عاجات، في حين كان امتداد السلسلة مع قمم دقداش والثية قد رأيته بنفسي من مخيمنا في أقصى الشمال - الشرقي، وفي غضون ذلك وجدت السيارة طريقها لتصل إلى سفح المنبر، ونزلت إلى نقطة ملاحظة جديدة لأرى الجرف الحاد بارتفاع ٦٠٠ قدم على الحافة الجنوبية -الجنوبية- الغربية للجبل، ثم عدت للسيارة، وهي غير بعيدة عني، لأكتشف أن رفاقي قد شغلوا أنفسهم خلال غيابي بالشاي، بعدما وجدوا وقوداً كافياً لإضرام نار، وأن عبد الله بن قعم قد اصطاد أرنباً برياً وأحضره حياً في كيس، وقد رفضت ما قدّم لي من مشروبات، وكانت الساعة الواحدة تقريباً بعد الظهر عندما بدأنا رحلة العودة عن طريق أسهل بكثير من الذي سرنا به في الظلام.

وبعد أن وصلنا رأس حوض الحرضة أسرعنا السير في السبخة الطينية وما تلاها من سهل حصوي لنصل محطة بير ابن هرماس في أقل من نصف ساعة بعد أن قطعنا ثمانية أميال تقريباً، وبهذا نكون قد قطعنا ما مجموعه حوالي عشرين ميلاً من سفح المنبر، وكانت

هنا بئرٌ، فيها ماء على عمق ستة قامات. وفوهة البئر مبنيّة بصورة جيّدة بالطوب والخرسانة ويبلغ قطرها عشرة أقدام عند القمة. وعلى هذه الفتحة قام مهندسو السكة الحديد بتركيب مضخة تعمل بطاحونة الهواء، والتي كانت -على كل حال- عاطلة عن العمل منذ مدة طويلة بقدر ما يستطيع أي شخص أن يتذكر.

بيد أن المحطة كانت تشغلها مفرزة صغيرة من ثلاثة رجال من المركز في ذات الحاج وكنت مسروراً أن أتركَ معهم دليلنا غير المجدي دون شكر أو مكافأة. وهذه المحطات كلها من نموذج واحد. وهنا يسير الخط جنوب -شرق وشمال- غرب، وفي هذا الاتجاه الأخير إلى ذات الحاج، التي لم نستطع أن نرى نخيلها، على الرغم من أن معالمها الأرضية القريبة كانت واضحة بدرجة كافية.

وكان بين ذات الحاج والمدوّرة في إقليم الأردن يمتد خط الحدود بين المملكتين، ومن المدوّرة فصاعداً حتى معان كان خط سكة الحديد قد تم تفكيكه خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أعيد تمديده من معان حتى العقبة، وهذا هو الانقطاع الكبير الوحيد في الخط كله الذي كان ذات يوم يربط المدينة بمعان ودمشق، وإنه في الحقيقة لأمر يجلب التقدير لمنلر باشا وزملائه أن يصمد الخط الذي شيدوه بقوة شديدة لجميع التقلبات الطبيعية لما يقرب من أربعين عاماً من الإهمال وعدم الاستخدام، ولم يخضع للهوان على فترات متقطعة إلا بفعل

التخريب البشري المتعمد. وفي عام ١٩٢٤م قام الأمير علي، الإبن الأكبر للملك حسين، فعلاً بإحضار عدد من القطارات من المدينة المنورة إلى عمان على طول هذا الخط، ليس بلا مصاعب محلية، ليحتفل بزيارة والده الرسمية لعاصمة الأردن الكبير، على الرغم من مزاعم تدميره بالديناميت على يد لورانس وعصاباته خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد كان، ولا يزال، عملاً رائعاً وفذاً في هندسة السكة الحديد تمّ إنجازه حتى الآن في أرضٍ قاحلة وربما يجرى ذات يوم مرة أخرى إذا كان من الممكن استخدام المال في مشاريع أكثر ربحاً وعائداً، وعلى مدى ثلاثين سنة قيل لنا إنّ ذلك سيحدث، إلا أننا كنا -على ما يبدو- نتفاءل كثيراً طيلة هذه المدة.

في هذه اللحظة كنت مهتماً بصورة أكبر بالمشهد نحو الغرب تجاه الآثار الأسطورية للقريّة (أي القرية الصغيرة)، والتي على حسب علمي لم يزرها أبداً شخص أوروبي. لقد سمع بها داوتي وبيرتون وموسل وكاروثرز وكلهم تمنوا زيارتها، بيد أنه لم يستطع أحدٌ منهم عمل ذلك، سأكون هناك في المساء، لأصبح أول من يكشف النقاب عن أسرار مستوطنة نبطية قديمة، وبعد ثلاث سنين لاحقاً قال لي صديقي جورج رنتز من شركة أرامكو -حيث لفت انتباهي لحقيقة- إنه قد سبقني بخمسة وأربعين عاماً الرحالة الألماني برنارد مورتز

الذي زار الموقع في ١٩٠٦م. وقد نشر وصفاً موجزاً لزيارته في كتابه العربي الذي أصدرته مطبعة في هانوفر عام ١٩٢٣م، وهذا لم يدع أي مجال للشك في أسبقيته، ومع ذلك لم أتمكن بعدُ من متابعة وصفه الأكثر تفصيلاً لزيارته في دورية علمية صدرت في بيروت عام ١٩٠٦م أو العام الذي بعده [١].

وتتحدر الأرض من المحطة برفق مرتفعة إلى أعلى نحو الغرب، تتناثر فيها هنا وهناك مجموعات أو خطوط من أكوام الحجارة الرملية، حيث كان دربنا يمتد، عدة أميال أمامنا، بين تلك التي تسمى عظيمة البير عن يسارنا وعظام الطعوس عن يميننا. والمقطع الأول من الاسمين يشير إلى المماثل الطبيعي في الأرض لسلسلة فقرية لهيكل عظمي كبير.

وكان هناك بالعرض جبلٌ أعلى منهما هو عظمة المساعيد قد حجب الوادي بعيداً عن رؤيتنا حيث تقع القرّية، ولكننا كنا نستطيع أن نرى سلاسل الجبال والتلال في الهضبة المنبسطة المرتفعة من ورائها لمسافة بعيدة، وكانت أكوامُ سرابط الحاج البارز وتلُّ الشعثاء الشاهق يظهران الموقع التقريبي لمحطة ذات الحاج إلى الشمال -

(١) مجلة كلية الشرق ببيروت - المجلد الثالث - الجزء الأول.
(Melanges de La Faculte Orientale de Beyrouth, Vol. III, part I.)

الغربي منا، على بُعد اثني عشر ميلاً أو أكثر، والمسافات الفاصلة بين سلاسل الجبال المختلفة مملوءة بطبقات من الرمل، تطورت في بعض الأماكن إلى خطوط قصيرة من تلال منخفضة.

وقد وجدت نقوشاً قليلة على صخور عظام الطعوس، وبعد ذلك فوراً عبرنا جبل المساعيد من خلال مضيق منخفض، علامته أكوام تشبه الأعمدة تسمى عُمَيِّد الخُرم. من هنا نظرنا إلى الأسفل إلى الوادي والسهل الفسيح المسمى غويل السيل، على الرغم من أننا لم نتمكن من رؤية أي شيء من قريّة مقابل خلفيتها الداكنة من سلاسل الجبال المنخفضة، وكان السهلُ الذي عبرناه على طول الضفة اليسرى لشعيب الغُوَيْل ذا طُفّال رملي، ناعم جداً في بعض أجزائه وتقطعه بُقع كثيرة من الرمل، وطبقات من الحجر الرملي الأبيض الصلب، والطريق الرئيس من تبوك، عبر الحزم، إلى مدين يقطع هذا السهل بالعرض متجهاً إلى ممر بين جبلي عمارة العجوز والذيابية على مسافةٍ ما عن يميننا.

وبعد أن عبرناه سرعان ما وصلنا إلى أول علامة من علامات الزراعة القديمة وهي حقول فواصلها من الحجارة، وسدود، ومبان متهدمة. وخلال عشر دقائق كنا قد نصبنا مخيمنا قريباً من الركن الشمالي - الشرقي للمدينة الركام نفسها، وإلى الغرب من صخرة المنبر البعيدة الآن في شرورى.

وقد عزمت على أن أبقى هنا الوقت اللازم للاستكشاف التام لقريّة وما جاورها، ولكن كان همي العاجل الآن أن أعيد تنظيم جماعتي. ولأسفي الشديد، لم يكن زعل معي ليرافقني، وقد أعاد علي ثروت تعيين عطا الله وعبد الله بن قعم والرجلين الآخرين من جماعة رحلتي في الروافة، محمد بن دخيل وحمد بن دايل، ليكونوا مرافقين لي. وعلى الرغم من المتاعب التي تعرضنا لها بالفعل، فإنني لم أعترض على هذا الترتيب، على أمل أنهم ربما، بعد معرفتهم بي وبطريقتي، يبذلون جهداً لمساعدتي في أداء مهمتي، لقد أظهروا بوضوح خلال هذين اليومين الأولين أنه ليس لديهم أي نية لتنفيذ ذلك، وقررت أن أتخلص منهم. وفي الساعات الباكرة من الصباح التالي انضممت إليهم عند نيران المخيم، وقلت لهم إن الشاحنة تحت تصرفهم لتعود بهم إلى تبوك مع خطاب يشرح مبرراتي لفصلهم.

إن توفير الأدلاّء كان مصدراً مزمناً للمتاعب في رحلاتي، وهذه المهمة كانت بلا شك من مسؤولية الرجال الذين تُعيّنهم السلطة المختصة ليكونوا رؤساء لجماعاتي. لقد كان لهم مطلق الحرية في اختيار أفراد تلك الجماعات، ونظراً للأرباح والعلاوات والأجور الإضافية التي سوف يحصلون عليها من خلال خدمتي، فقد كانوا في العادة يختارون -فقط- أقاربهم أو أصدقاءهم الحميمين.

وأوضحت لهم مراراً وتكراراً أن كل ما أطلبه منهم توفير أدلاء ذوي معرفة جيدة بالمنطقة. إنني سوف أتغاضى عن كل أنواع القصور الأخرى، ويشمل ذلك نقص الطعام وخلافه، ولكن بدون دليل كفء لا أستطيع أن أؤدي عملي بصورة مرضية. ولذلك لن أتسامح مع أي تقصير في هذا الجانب.

وبعد هذا كله تنشأ المشكلة نفسها مرة بعد أخرى، إنهم فقط لا يستطيعون أن يفهموا سبب احتياجي أكثر من مجرد شخص يعرف الطريق وكفى، وفي هذه القضية الماثلة أستطيع القول أن عطا الله ومجموعته كانوا مسرورين للرحيل عني مثلما كنت مسروراً برؤية آخر واحد منهم، على الرغم من أنني لست متأكداً من ذلك تماماً؛ فخلال ساعة أو نحوها استطعت أن أتنهد زفرة ارتياح عندما رأيت اللوري ينطلق بهم إلى تبوك.

وفي غضون ذلك، كان توقع وجود قهوة وطعام في مخيمنا قد جذب الاثنين الوحيدين من الرعاة العرب في المنطقة المجاورة لنا، وعقدت اتفاقاً مع كليهما ليعملا دليلين خلال مدة بقائي في قريّة، وكانا يحملان اسماً واحداً، سلمان، وهما من بني عطية من فخذ الربيلات وهكذا تركنا أحدهما ليحرس المخيم حتى عودة اللوري بفريق جديد، وذهبت مع الآخر لاستطلاع المناطق المحيطة بنا من الجبل الشاهق المطل على أطلال المدينة القديمة، وحلقت فوقنا طائرة

ونحن ذاهبون، ومن تكرار ما سمعنا أصوات الطائرات وهي ذاهبة في هذا الاتجاه أو الآخر خلال هذه الأيام يظهر أننا كنا تماماً تحت الطريق المنتظم بين جدة ودمشق. يبلغ طول تل حصن قريّة ١٠٠٠ ياردة تقريباً وعرضه يصل إلى ٣٠٠ ياردة، وكان شيئاً مثيراً للدهشة والإعجاب. فالطرف الشرقي المستدير، المطل على المدينة، كان جرفاً حاداً ارتفاعه ٤٠٠ قدم تقريباً، ومن طرفيه يمتد الجانبان الشمالي والجنوبي وهما مشكلان من نتوءات (أجراف) متماثلة يصعب الوصول إليها ويتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠ و ٤٠٠ قدم وتمتد نحو الغرب بحوالي ٦٠٠ ياردة.

عند هذه النقطة يتفكك الجبل إلى بقعة وعرة من الصخور المنهارة والرمل بدون جرف على كلا الجانبين، بينما كان الجرف واللسان في الطرف الغربي يطلان على السهل بجدران حادة الانحدار ولا يمكن الاقتراب منها. وتوفر المنطقة المفككة من الجبل طريقاً سهلاً ولكنه وعر إلى قمة الجبل من جهتي الشمال والجنوب لمرور المشاة أو الحيوانات، ولكن بالتأكيد ليس لأي نوع من السيارات، وقد تغلبت أنا وسلمان على المنحدر الوعر في الجانب الشمالي، لنصل إلى الجزء الأعلى من القمة عند بقايا أحد الأبراج (إي - أ) وهو نحو ٢٥ قدماً مربعاً ومنه ينزل جدار طوله ٢٠ قدماً نحو الشمال بطريقة حادة حتى حافة الجرف على ذلك الجانب، على مسافة تبلغ ١٥٠ ياردة

تقريباً. ومن البرج نفسه يمتد جدار آخر في اتجاه الشرق مسافة ٧٠ ياردة على امتداد قمة الجبل، أي حوالي ٥٠٠ قدم فوق السهل، ومن هذه النقطة ينزل بصورة حادة على المنحدر المعاكس حتى حافة الجرف على الجانب الجنوبي، أي مسافة تبلغ حوالي ١٥٠ ياردة. من الزاوية المكونة بهذا الشكل تمتد ذروة الجبل نحو الشرق حوالي ٢٠ ياردة حتى برج آخر (برج بي - ب)، ومنه ينزل الامتداد الجبلي بشكل حاد مسافة عشرة أقدام تقريباً ليستمر في الاتجاه نفسه نحو ٨٠ ياردة حتى ركام برج ثالث (البرج سي - ج)، ومن هنا تستدير القمة قليلاً لليسار ليصل ارتفاعها الأصلي عند البرج (دي - د) أو عند البوابة، مسافة ١٠٠ ياردة، ومن هذا البرج على قمة الجبل يتجه السور الشرقي للحصن نازلاً بصورة حادة نحو الشمال - الغربي والجنوب - الغربي حتى حافة الجرفين الشمالي والجنوبي على التوالي.

والجزء الشمالي من السور ينزل بشكل حاد ويبلغ طوله ١٠٠ ياردة، بينما الجزء الجنوبي منه أقل حدة في الانحدار وطوله ٩٠ ياردة تقريباً، وهذان السوران الشرقي والغربي من منطقة القلعة يتراوحان من عشرة إلى اثني عشر قدماً في الارتفاع حسب ما هما عليه الآن، على الرغم من أنهما كانا بلا ريب متساويين في الارتفاع بحوالي عشرين قدماً عند بنائهما في الأصل. وهما مشيدان من ألواح الحجر

الرملي الرقيقة الحمراء مع استعمال مونة طينية في رصف الألواح الحجرية، وقد يبدو أيضاً كما تدل بعض المؤشرات أن جداراً من نوع ما كان يمتد على طول القمة بين الأبراج المختلفة التي أشرنا إليها آنفاً، ولكن من الناحية العملية لم يتبقَ شيء منه الآن وحتى الأبراج نفسها لم يبق منها إلا النذر اليسير متمثلاً في قواعدها.

وبخلاف الأسوار والأبراج فلا يوجد أي أثر لأي مبنى آخر من أي نوع في مساحة تغطي نحو مئة وعشرين فداناً، بيد أن المنطقة كلها داخل وخارج الأسوار تتناثر فيها بكثرة الكسر الفخارية، التي جرفت المياه الكثير منها من الجرف إلى سطح الأرض في الأسفل، وبخلاف البرج (دي - د) الذي ربما كان بوابة تؤدي إلى الجزء الشرقي من الجبل خارج الأسوار، فإن العلامة الوحيدة الأخرى على مدخل يؤدي لمحيط القلعة توجد في زاوية السور الغربي، حيث يوجد دليل على طريق ممهد يصل إليها من الجانب الجنوبي للتل، مما يبرر بسهولة عدم وجود أسوار على الجانبين الشمالي والجنوبي حقيقة إن الأجراف الحادة في هذين الجانبين لا تحتاج إلى أي تحصينات دفاعية اصطناعية.

وعلى بُعد ثمانين ياردة تقريباً نحو الشرق من البرج (دي)، على قمة التل في اتجاه المدينة، تقع بقايا برج صغير أو نقطة مراقبة، وفي الوقت نفسه توجد رقعة مماثلة من الآثار على حوالي المسافة نفسها

بعيداً في اتجاه الشرق، وبعدها توجد أخرى أيضاً على مسافة تسعين ياردة، في حين تنحدر بعد ذلك بنحو أربعين قدماً أرفف الجبل بصورة حادة حتى حافة الجرف الحاد، حيث توجد بقايا برج مشيد تشييداً قوياً من الحجارة الرملية الصلبة، وهو أفضل شيء باق من الأشياء الأخرى في منطقة القلعة ما عدا السورين.

وتبلغ حافة الرف أربعين ياردة من هذا البرج، كما تمتد حافة الجرف، الذي يصل إلى ٤٠٠ قدم، من اللسان الشرقي لياردات قليلة وراءها، وتمتد رأس مساحة واسعة من أنقاض الصخور، والطمي، والرمل المنجرف مع التيار حتى منتصف الطريق إلى الجرف الحاد، مع قاعدة منحنية عند المسطح الذي يبلغ اتساعه ١٠٠ ياردة تقريباً، وقد لفت انتباهي ذلك كواحد من أهم معالم قريّة، لقد اختلطت مكوناتها الطبيعية مع أكداس من كسر الأواني الفخارية من كل نوع وشكل وبعضها له ألوان وطرز شديدة الجمال والجاذبية، ويبدو من المستحيل تقدير كميتها دون تنقيب شامل ربما ينفذه ذات يوم علماء آثار أكفاء. وتتناثر شظايا الكسر الفخارية على السطح المنحدر للساحة، فالحفر البسيط تحت السطح لاختبارها يشير بوضوح إلى أن هذا التل مستودع من البراهين الأثرية.

وقد أودعت ما جمعته من تلك الكسر الفخارية كما ينبغي في متحف جدة، وقد احتفظت بالقليل منها لتقديمها إلى الآثاري

المصري الدكتور/ أحمد فخري الذي فحصها وقدر بأن تاريخها يعود لما بين عام ٢٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادي. وهذه القرون تشمل فترة ازدهار الأنباط وسيطرتهم على شمال الجزيرة العربية، وليس من شك في أن الأنباط كانوا آخر عنصر مهم سكن قريّة. والتنقيبات العلمية وحدها يمكن أن تكشف الطبقات التحتية التي كان يسكنها أسلافهم، أياً ما كانوا. ولا بد من التأكيد هنا على أن الأشياء التي أخذتها معي تمثل مجموعة منتقاة من اللقى جمعتها من سطح الأرض أو تحت السطح مباشرة وكذلك من منطقة الأنقاض في المدينة القديمة ومن تلها خارج السور الجنوبي.

وبخلاف المباني التي تشبه الحصون أو ما تبقى منها، والتي تحيط بذروة الجبل، لم يكن هناك أثر لأي منشآت أخرى من أي نوع كانت في كامل المنطقة التي يحيط بها السوران وقمم الجروف على كلا الجانبين اللذين ينحدر إليهما الجبل المركزي في قسمين متساويين تقريباً مثل سقيفة عظيمة. وإذا كان هناك أي مبانٍ على الإطلاق في هذه المساحات فلا بد من أنها قد انجرفت مع الأمطار عبر القرون فوق حافة الجرف، على الرغم من أن حقيقة عدم وجود دليل على أي بناء متهدم أو ساقط عند سفح هذه الجروف يؤكد عدم وجود مثل هذه المباني أصلاً. ومن ناحية أخرى تتناثر في المنطقة علامات واضحة على سكنى الإنسان متمثلة في هذه الكسر الفخارية على

الأسطح المنحدرة وعند قاع الجرف. وربما كان الموقع مستخدماً كمستوطنة يلجأ إليها سكان قريّة في أوقات الخطر كمخابئ، وهناك تفسير آخر بديل وهو أنه ربما كان مكاناً مرتفعاً (سامياً) للاحتفال المرتبط ببعض الطقوس الدينية، وهذا ما لا يمكن تأكيده إلا بعمل علماء الآثار في الموقع.

وفي كلا الحالتين يحتمل أن سكان التل قد عاشوا في الخيام أو في العراء خلال إقامتهم المؤقتة به، ويأتون ومعهم مؤونتهم وماؤهم في جرار وأباريق، التي يوجد قدر هائل من الأدلة عليها في كل مكان، لا سيما في الساحة الشرقية، حيث لا يمكن تفسير وجودها هناك إلا بافتراض أنها كانت ترمى أو تلقى عمداً في الأسفل من فوق الجرف عندما تنكسر أو تنتهي الحاجة إليها، وقد وُجد هنا وهناك على مجموعة الأجراف المحيطة بالتل، لا سيما على الطرفين الغربي والشرقي، عددٌ هائل من النقوش، معظمها ثمودية، وبعضها يوحي بأنها موغلة في القدم، على الرغم من أن المظهر القديم بشدة لبعضها قد يُعزى إلى نوعية الصخور أو مدى تعرضها للعوامل الجوية.

وأخيراً، وبقرب الطرف الشرقي من الواجهة الشمالية وفوق مستوى الأرض قليلاً، يوجد كهفان اثنان فحصتهما بالتفصيل ذات أصيل؛ كانت جدران الجرف (الذي يحوي الكهف) من الطين والمرل حوالي ١٠٠ قدم من القاعدة، وبعد ذلك من الحجر الرملي

الصلب ذي اللون البني والأحمر الفاتح، وكان منظرُ الكهفين من مخيمنا يوحي بمحاولات الأنباط البدائية نسبياً لتقليد طراز القبور الحجرية التي كانوا يحبون دفن موتاهم فيها، ولكن الفحص عن كثب أظهر أن هذين الكهفين كانا، على الأقل جزئياً، نتيجة نحت أو تآكل طبيعي في قاعدة الجبل الهشة، في حين تم تطويرهما بالتأكيد، بصورة عشوائية نسبياً، من قبل الإنسان ربما ليستخدمهما مقابر جماعية.

كانت فوهة الكهف الأول مبطنة بألواح الحجر الرملي مع ملاط من الطين، وكان واضحاً أن هذا المدخل قد تهشم على يد الباحثين عن الكنوز، إذ تقع الحجارة المتساقطة جزئياً داخل الكهف وخارجه على جانبي الحاجز المنخفض، الذي يمثل قاعدة السور الأصلي. وكانت غرفة الكهف عرضها ١٥ قدماً عند المدخل، ثم تضيق إلى ١٠ أقدام عند الطرف الداخلي، الذي كان على بُعد حوالي ٥٠ قدماً من الفوهة. أما ارتفاع الغرفة فقد كان ١٥ قدماً تقريباً، في حين كان الجدار عند الطرف الداخلي محفوراً لتوفير فتحتين لغرض غير معروف، ولم يكن هناك علامة تدل على قبور أو تجاويف صغيرة، مثلما يوجد في معظم قبور الأنباط الصخرية، وكانت هذه الغرفة كلها منحوتة، إما طبيعياً أو اصطناعياً، من طبقة الطين والمرل في الجرف حتى السقف الذي تكونه طبقةُ الحجر الرملي الصلب والناعم

في الجزء العلوي، ويلاحظ في الجدران حفر من مخلفات أعشاش الدبابير، وتمتلئ الأرضية بكميات كبيرة من عظام البشر والإبل، مما يوحي بأنها قد أتت بها الضباع إلى هناك من القبور أو المراعي المجاورة. ويوجد الكهف الثاني على مستوى أكثر ارتفاعاً نسبياً عن الآخر، وكان حوالي قدمين فقط من جدرانه الداخلية مكونة من طبقة الطين والمرل، في حين كان الباقي كله من الحجر الرملي الصلب، ومن الواضح أنه من عمل البشر، ولم يكن المدخل مبنياً مثل ما في الكهف الآخر، ولكنه كان مغلقاً بحاجز وعر من ركام الصخور والرمل، الذي كان مفصولاً إلى جزأين ربما بفعل لصوص القبور.

ويتكون الكهف من جزأين، الأول غرفة في الخارج عرضها ١٥ قدماً، مثل المدخل، وطوله ٢٥ قدماً في الداخل، وارتفاعه اثنا عشر قدماً تقريباً، ثم ردهة داخلية ضيقة يصل ارتفاعها إلى ٣ أقدام، وتمتد من فتحة في الجدار الخلفي حوالي ٨٠ قدماً في الصخر الصلب.

ولم يكن هناك أيضاً أي أثر لقبور أو تجاويف صغيرة، ولا حتى فتحة أو ارتداد من أي نوع، بالرغم من أن الأرضية كانت مفروشة بعظام وجماجم بشرية وعظام إبل مثل سابقتها، ومن هنا قد حملت جمجمة بشرية كاملة وهي الآن في متحف جدة.

هذا كل شيء عن تل الحصن والذي تمتعت من نقاط مختلفة في قمته المزخرفة الجميلة بإلقاء نظرات رائعة على المنطقة المحيطة به في هذه المناسبة وغيرها من المناسبات، لا سيما من أعلى نقطة فيها عند البرج (بي: ب) ومن قمة البرج الشرقي. وكانت هذه الأخيرة تطل مباشرة على آثار المدينة القديمة، القريبة من الناحية الشمالية - الشرقية، بينما كان المرتفع الجميل من هذا البرج حتى البرج (بي: ب) تمتد من اتجاه شمال الغرب.

وكان السور الدائري للمدينة كلها، الذي تمثله الأحجار المتساقطة منه وبعض الثغرات فيه بسبب السيول، يمكن رؤيته وتمييزه بوضوح من البرج، وعلى فترات متقطعة خلال إقامتي أتيحت لي فرص قياسه كله بالخطوات، لمعرفة المخطط الدقيق لتصميمه؛ لقد كان للسور أحد عشر ضلعاً، والتي يمكن تخفيضها بقليل من رسم الزوايا الواسعة بخطوط مستقيمة إلى خمسة أضلاع، ورأسه يشير للشمال وقاعدته تتجه للجنوب، تبلغ المساحة التي تغطيها الآثار ١٢٫٥ فداناً ونصف الفدان، وطولها ٣٠٠ ياردة تقريباً من الرأس حتى النقطة الوسطى في القاعدة. وقمت بقياسات مماثلة فيما بين الزوايا الأخرى. وكان حوالي ثلث المساحة كلها، تقريباً على طول الأسوار الشرقية، يشغله منخفض جاف يحتمل أنه كان بحيرة أو خزاناً للمياه لضمان إمداد السكان بالماء بصفة دائمة، وكانت الأرض المرتفعة

على ثلاث جوانب من هذا الحوض مغطاة بأشياء مبعثرة من أنقاض المساكن التي كان الناس يعيشون فيها، ولا يمكن من الناحية العملية تمييز وحدة واحدة من هذه المساكن وسط الخراب العام.

وعلى المرتفع الجبلي فقط والذي يشكّل الجانب الجنوبي من منطقة الخرائب، يوجد ركام الأحجار المتساقطة من بناء الأسوار والمباني التي يمكن بالكاد معرفة مخططاتها في غياب عمل آثار مقدر، والمساحة المتهدمة من السور في الجهة الشمالية - الشرقية ربما كانت تحتوي على بوابة اختفت معالمها تماماً، بينما توجد بقايا البوابة الوحيدة التي يمكن تمييزها في الزاوية الجنوبية - الغربية المقابلة من المدينة.

ويوجد الكثير من كسر الفخار والزجاج، والقواقع وأشياء أخرى يمكن جمعها من بين الأنقاض وفي الكوم الكبير خارج السور الجنوبي، ولكن الفوضى التامة وحالة الآثار داخل الأسوار قد منعت أي محاولة لتحليل المعثورات. ونوعية البناء الجيد على الأرض المرتفعة داخل السور الجنوبي توحي بأن هذه المنطقة كانت مكان السكن الرئيسي، بينما كان الجزء الأكبر الواقع بين السور الغربي والبحيرة يؤوي بلا شك غالبية السكان. وتمتد الحافة الشرقية للماء على طول السور في ذلك الجانب، والانقطاع في السور الشمالي يوحي بأن مخرجه إلى الوادي المجاور كان هناك أيضاً. وتنحدر قناة

هذا الوادي -الذي يُعرف بشعيب قريّة من التلال المنخفضة في المدينة- لتمرَّ من خلال فجوة ضيقة (حوالي ٢٠٠ ياردة) بين الزاوية الجنوبية - الغربية للمباني الأثرية وسفح تل الحصن الواقع مباشرة تحت قمة البرج المزخرفة. وهناك بقايا سد يمتد على هذه الفجوة لا تزال معالمه واضحة على الجانبين، في أسفل جرف المجرى السورُ الغربي للمدينة. والمنحنيات الأخيرة تلتف حول الجانب الشمالي لتلتقي بقناة وادي الطرف الكبيرة، التي تنحدر من التلال العالية لهضبة حسمى.

ويمر الوادي على طول السور الشرقي من المدينة ليدخل في حوض كبير تبلغ مساحته ٢٠٠٠ فدان تقريباً وتوجد فيها أدلة وافرة على ازدهار الزراعة في العصور القديمة. وسوف نأتي على كثير من التفاصيل عن هذا الوادي فيما بعد، إلا أنه يمكننا أن نذكر الآن أن هذا الوادي كان أيضاً مسدوداً في العصور القديمة بسد في اتجاه شرق - غرب، يربط الزاوية الجنوبية - الشرقية من المدينة بالأرض المرتفعة من جبل خضروات ناحية الشرق.

ولا ريب في أن هذا السد كان يحافظ على تعبئة بحيرة المدينة بالماء، حيث بلغ طوله ٧٠٠ ياردة تقريباً، مع قناة سيل الوادي التي يبلغ طولها أربعين ياردة وكانت متقاطعة معه في أقل من منتصف المسافة من الجهة الشرقية. والسهل على الجهة الغربية من تل الحصن

كانت تقطعه بالعرض قناة وادي المسيوغ الرملية الواسعة، والضحلة نسبياً، وهي تنحدر أيضاً من التلال في الهضبة العالية وتسير باتجاه الشمال على طول جبل منخفض على شكل معيّن الذي يفصلها عن الحوض المزروع، وفي مجراها تلتقي بعدد من الروافد، تشمل شعيب حرف ضباء وشعيب الطف وأخيراً شعيب الغل من جبل الذيابية، وفي النهاية تتلاشى في سبخة طينية مالحة يصعب تحديدها نسبياً تعرف باسم سبخة عظمة الخارم، حيث تلتقي هناك بخط تصريف سيل الغويل الذي عبرناه ونحن في طريقنا إلى قريّة.

وهذه المنقطة كلها محصورة فيما تسمى أرض لح التي تشمل الحافة الخارجية للأرض المنخفضة بين الهضبة والحوض، ولا بد أن هذه القنوات ظلت ذات يوم تصرف مياهها فيها حتى كبرت التلال الرملية وأعاقت مجراها. وكما رأينا من قبل، فإن الجزء الجنوبي منها يضم المناطق الآهلة بالسكان في كل من رجوم شوهر والجرثومة والرايس والقرى التابعة لها، بل وحتى تبوك نفسها.

إن قريّة وبعض الأصقاع الأخرى، التي سوف نناقشها في الوقت المناسب، تمثل مجموعة ثانية من القرى القديمة المعتمدة على الزراعة، بينما على مسافة أبعد في الشمال نجد أن واحة ذات الحاج وربما المدّورة نفسها هما أبعد القرى للشمال من أرض لح. وفي العصور البائدة لا بد أن قريّة كانت أهم مركز فيها، لأنه لا يبدو أن

هناك دليلاً بذلك أن تبوك كانت ذات يوم آهلة بعدد كبير من السكان، على الرغم من أنها كانت بالتأكيد مكاناً هاماً لمياه الشرب على طريق القوافل الرئيس. لقد كانت تبوك بكل تأكيد ما اسماه بطليموس تباوا، وإلى أن يأتينا التأكيد من الآثار يمكننا أن نقبل مبدئياً تحديد موسل وهو ليس بالضرورة مؤكداً، بأنّ قريّة هي ما أطلق عليه بطليموس اسم أوستاما. (وبالمناسبة فإن موسل قد أخطأ، بصورة يمكن التغاضي عنها، في وضع قريّة في وادي زَيْتَة الذي -كما سنرى- كان موقعاً لمستوطنة قديمة أخرى). إن كل ما نعلمه على وجه اليقين أنه من المستبعد أن تسمى قريّة الأنباط. ويبدو أن سبب وجودها أصلاً كان زراعياً بصورة أساسية، ولكن الإمكانيات الدفاعية والمزايا الدينية لتل الحصن قد تكون منحتها أهمية قصوى في المنطقة.

وعزمت على أن أقضي اليوم الثاني في فحص مفصل للأمور الزراعية فيها، ولكن بعد يوم عامر تماماً بالعمل في الحصن ومسح ابتدائي لأسوار المدينة ما لبث أن أستقر بي المقام في المخيم بعد حلول الظلام مع السلمانين حتى قطع هدوءنا أزيز سيارات مقتربة. لقد عاد عطا الله وزملاؤه من تبوك، بالإضافة إلى زعل الذي رحبنا به كثيراً، ومعهم خطاب من علي ثروت يقترح فيه ضرورة احتفاظي بالجماعة كلهم، على الرغم من أنني كنت حراً في إعادتهم إذا

رغبت في ذلك. وقد عقدنا " مجلس حرب " كان من نتائجه أن يبقى معي زعل وابن دخيل، بصفته طباخنا وعاملنا اليدوي، في حين يجب على البقية أن يعودوا في شاحنة الأمير التي رافقت اللوري.

ولكنني قد اشترطت شرطاً هو أنه يجب على زعل أن ينطلق في الصباح التالي إلى ذات الحاج ليجد دليلاً كفؤاً للرحلة التي أمامنا، حيث لم يكن لدى السلمانين أي رغبة في مغادرة المنطقة واعترفا عن طيب خاطر بجهلهما المطبق بكل شيء خارج حدودها الضيقة. إنهما لم يكونا بارزين بالضبط في معرفتهما بمنطقتهما المحدودة، ولكنهما كانا رفيقين حسني النية طيّبي المعشر وبسيطين، ووفقاً لذلك، ففي الصباح التالي، ظل ابن دخيّل والسيد في المخيّم مع الشاحنة، بينما انطلق زعل وباقي الجماعة، بمن فيهم السلمانان، في شاحنة تبوك. وقد رافقتهم حتى النقطة التي كنت أريد أن أبدأ منها استكشافي للمنطقة الزراعية.

لقد ضاق الحوض هنا إلى حد ما بسبب الإنحناء إلى الداخل في التلال المرتفعة على كلا الجانبين، وقد اختار القدماء هذه البقعة لبناء سد طويل ليحتفظ بمياه السيول لري أحواض محاصيلهم كالمعتاد. لقد كان منشأة جديرة بالملاحظة خشن إلى حد ما وظاهر بصخوره ومحتوياته من الحصى، ولكنه كان كافٍ لأداء غرضه. بدءاً من قمة

التل المنخفض على جانبه الغربي، الذي تبينه كومة من الحجارة، يصبح اتجاهه العام نحو كوم من الحجارة مماثل على الجانب الأبعد جنوب - شرق (١٣١ درجة)، مع اتساع طفيف باتجاه الشمال في منتصف المسافة تقريباً، حيث يوجد هناك ثغرة في بنائه المتصل، وكان ذلك من دون شك نتيجة للسيول الحديثة، على الرغم من حقيقة وجود دلائل كثيرة نسبياً أيضاً على الزراعة القديمة أسفل السد تتمثل في الحقول المخططة بالحجارة مما يوحي بأنه عندما يكون هناك ماء كاف في الحوض فإن فائض المياه يُستفاد منه في الأسفل، وكانت قمة السد عند كوم الحجارة في شكل النصب يبلغ ١٠٠ قدم تقريباً فوق مستوى الحوض، وجداره الصخري يمتد نازلاً بانحدار نسبي حتى الحوض، بمسافة تبلغ ١٣٣ ياردة.

وهنا يبدأ السد الفعلي، فهو تل مستدير من الصخر والطين بدون أي دليل على بناء صخري حقيقي ويبلغ ارتفاعه ١٠ أقدام تقريباً في المتوسط، وقد تتبعته مسافة ٣٨٣ ياردة حتى بداية الثغرة التي كان عرضها ٨٧ ياردة، وهناك شجرة طلح واحدة متوسطة الحجم أعلى التيار مباشرة من الفتحة، وكان بين فروعها عش غراب قديم، ومن الطرف البعيد للثغرة يمتد السد مسافة ٥١٨ ياردة حتى حافة التل على الضفة اليمنى المعلّمة هنا ببناء مستطيل -بارتفاع الكتف- من الطوب والحجارة الرملية الكبيرة والمشذبة تشذيباً خشناً، ويبلغ طول البناء

٢٠ قدماً وعرضه ١٢٫٥ قدماً ونصف القدم، ومن الصعب تخمين الغرض منه. وبعد ذلك يستمر السد بجدارٍ صخري حتى المنحدر مسافة ٢٣٦ ياردة أخرى حتى برج مشيد تشييداً قوياً جداً يبلغ خمسة عشر قدماً مربعاً وطوله عشرة أقدام، وكان جانبان منه لا يزالان سليمين بينما الجانبان الآخران قد تفككا وانهارا وانجرفا إلى أسفل المنحدر البعيد.

ويبلغ إجمالي طول هذا البناء بهذا الشكل ١٢٥٧ ياردة، منها ٨٨٨ ياردة تمثل القسم الذي يقطع الحوض الحقيقي، ومن هذا البرج يمتد خندق للحماية يتبع تضاريس المرتفع الصخري في اتجاه الجنوب بصفة عامة، وينثني ويدور خلال شق طريقه في منحنيات التل. وربما كان هذا لتنظيم تدفق المياه ومنعها من غمر المحاصيل المزروعة، أو لحفظ المياه في قنوات خاضعة للتحكم والسيطرة تأتي من المنحدر على مسافات متباعدة.

وكان إجمالي طول هذا الخندق من البرج حتى الطرف الشرقي لخزان المدينة ٢٢٠٠ ياردة تقريباً، بفجوة حوالي ٥٠٠ ياردة للجنوب من الخزان لمرور طريق السيارات الرئيس من تبوك إلى القريّة ويشمل هذا الانقطاعات الناجمة عن الفيضانات والمساحات التي تركت عمداً لتدفق الروافد الصغيرة إلى الداخل. وليس هناك ما يستدعي وصف الحافة الغربية من الحوض لأنها تتكون من تل منخفض

مستقيم، يتكون من جزء من الصخر وآخر من الرمل وتمتد مباشرة من كوم الأحجار (النصب) الغربي في السد الأسفل حتى حافة تل الحصن.

ومن سفح تل الحصن، وبجوار كهوف المقابر، يجري خندق طيني نحو الشمال - الشرقي مسافة ٥٠٠ ياردة تقريباً، وعندها يلتف لليمين نحو بستان عظيم حقاً من أشجار الطرفاء في قاع شعيب قريّة على مسافة غير بعيدة عن السور الشمالي للمدينة، وفي منحنى هذا الخندق يلتقي بآخر آت من سفح جرف الحصن عند نقطة تبعد ٤٠٠ ياردة تقريباً عن الكهوف، ومن الواضح أن هذين الخندقين قد صُمما لتوجيه المياه المنصرفة من التل نحو رأس قناة قصيرة تؤدي إلى قاع شعيب. ويبدو أن بستان أشجار الطرفاء نفسه هو الشيء المتبقي من منطقة حدائق منمقة وملحقة بمجموعة من المباني بالضفة الجنوبية للقناة. وكانت كل المنطقة المرويّة تقع بين الضفة الجنوبية للشعيب والسور الشمالي للمدينة. ومن المحتمل على الأرجح أن تمثل هذه المنطقة فناءً لقصر الأمير الحاكم، ولكن لا يستبعد احتمال أن تكون منطقة معبد، وقد أطلقت على المباني بصورة مبدئية اسم (Nymphaeum) أرض الحور المحلية [1].

(١) يشير المؤلف لآلهة الحور التي كانت الأساطير القديمة تصورها في شكل عذارى جميلات يقمن في الجبال والغابات والمروج. (المترجم).

إن تكرار الإشارة في النقوش السبئيّة إلى "منزهات" أي آلهة المياه، الذين كانوا دائماً ذوي أهمية قصوى في الحياة الاقتصادية بالجزيرة العربية قبل الإسلام، قد يبرر مثل هذه التسمية، على الرغم من أن الغرض من تلك الآثار لا يمكن تحديده بصورة نهائية إلا بالتنقيب والدراسة المتخصصة. ولم أجد شيئاً هنا سوى قليل من الحجر الصوّان، وبعض المحار، وبعض كسر الزجاج (وهذا ليس شائعاً في قريّة) وبعض كسر الأواني الفخارية العادية. ومن المعبد نفسه لم يبق إلا القليل، الذي يشمل أساساته، التي تعطي المرء فكرة معقولة عن حجم ومخطط المباني. وكان الجدار الشرقي من المبنى الرئيس يمتد تقريباً شمالاً وجنوباً (٣٤٤ درجة حتى ١٦٤ درجة)، ويبلغ طوله ٨٥ قدماً، والجدار الشمالي كان بطول ٧٠ قدماً وبزوايا قائمة معه. وداخل هذا المستطيل كان في الركنين الشمالي – الشرقي والشمالي – الغربي غرفتان كبيرتان، مقاسهما على التوالي ٢٧ × ٤٠ قدماً و ٤٢ × ٤٠ قدماً، بينما كان الجزء من الفناء الواقع جنوب الغرفة الكبرى فيما يبدو ساحة مكشوفة.

وباقي المساحة مشغولة بأربع غرف صغيرة (أو ممرات)، وكلها بطول ٤٠ خطوة من الشرق للغرب، وتختلف في الاتساع من ٩ إلى ٧ أقدام. وكانت القياسات الخارجية لهيكل المبنى ٨٥ × ٧٠ قدماً. وكان سُمك جدران المعبد ٥ر٢ قدمين ونصف القدم وهي مشيّدة في

الغالب بطوب من الحجر الرملي غير المشذب، على الرغم من أن البناء كان في بعض الأجزاء ذا جودة رائعة. والمباني الثانوية تضم غرفة مفردة، مساحتها ٣٠ × ٢٥ قدماً، وضلعها الشمالي في خط مع الجدار الجنوبي للمبنى الرئيس، ويبعد حوالي ٣٠ قدماً للشرق منه. ومبنى ثانٍ يتكوّن من غرفتين، على مستوى واحد مع الجزء الشمالي من المعبد، ومفصول عنه بممر طوله ٧ أقدام. وتبلغ مساحة الغرفتين على التوالي ٥٠ × ١٨ قدماً و٥٠ × ٣٨ قدماً.

والمبنى الوحيد الآخر الجدير بالذكر في منطقة الآثار بقريّة يقع أيضاً مباشرة خارج السور الدائري، وفي زاويته الجنوبية – الشرقية، تقريباً عند طرف المدينة من السد الطويل عبر قناة طرف. وقد أطلقت على هذا المبنى مبدئياً اسم "القصر"، على الرغم من أنه على حسب موقعه ربما يكون على الأرجح المقر الرئيس لإدارة الري المسؤولة عن التحكم في مياه السيول. وكانت توجد بالمنطقة المجاورة له، وخارج السور الدائري، على الرغم من أنها تقع بينه وبين الوادي، مجموعة من أكوام الأنقاض المتناثرة، التي ربما كانت أكواخ العاملين في القنوات. والقصرُ نفسه هو المبنى الوحيد في قريّة الذي ثبت إلى حد ما لتقلبات الزمن، فلا تزال أجزاء كبيرة من جدرانه قائمة بشكل أو بآخر، ومنها على وجه التحديد قطعة واحدة كبيرة مشيدة من عشرة مداميك من البناء المشذب جيداً بارتفاع ١٥

قدماً، هذه القطعة وعدة أقسام أخرى أصغر منها ذكرتني بقوة بمعبد روافة، وليس من شك في أنهما يعودان إلى الفترة نفسها. وينتصب القصر على رابية صغيرة، التي يحتمل أن تكون طبيعية ولو جزئياً على الأقل، وبارتفاع يتراوح بين ١٥ و ٢٠ قدماً تقريباً، خارج محيط المدينة، حيث يكون الجدار الغربي للمبنى متوازياً معه وبينهما ممر واسع، وهذا الجدار يبدأ مقابل نقطة على بُعد ٨٠ ياردة شمال الركن الجنوبي - الشرقي للمدينة، ويمتد شمالاً لنحو ٣٧ ياردة، العشرة الأولى منها تبدو أنها تخص شرفة بارزة من المبنى الرئيس، والذي كانت مقدمته نحو المدينة نحو ٢٧ ياردة. ويبلغ اتساع المبنى من الغرب للشرق ١٧ ياردة تقريباً، والمخطط الداخلي كان يضم في الغالب غرفتين، إضافة إلى غرفتين صغيرتين يفصل بينهما ممر يؤدي إلى الداخل من بوابة في الجدار الغربي.

والقسم الأفضل ثباتاً من السور الدائري يقع في الركن الجنوبي - الشرقي، حيث توحي البقايا المتهدمة من البناء الحسن بوجود برج على الأرض المرتفعة (وهي أعلى نقطة في المباني المهدمة)، ومنه يمتد السور الجنوبي مسافة ٢٢٠ ياردة حتى الركن الجنوبي - الغربي، وبالقرب منه توجد البوابة الرئيسة ويحدها جداران غير طويلين (حوالي ثماني إلى عشر ياردات) في الخارج ومبنى صغير يحتمل أنه كان غرفة للحارس، ويتجه السور الشرقي المنحني قليلاً حوالي

٢٤٠ ياردة من الركن الجنوبي - الشرقي حتى ثغرة يبدو أنها كانت بوابة للمرور القادم من الشمال والشرق، والخط المستقيم الذي يربط البوابتين ببعضهما يشكل قاعدة شبه مستطيل يمثل معظم الجزء الأكثر كثافة سكانية من المدينة، التي ترقد الآن في حالة من الفوضى والخراب. وكان مخيمي خارج منطقة الآثار في زاويتها الشمالية - الغربية، وعلى الضفة اليمنى لشعيب قريّة. وربما تخضع ذات يوم هذه الآثار التاريخية الهامة للتنقيب العلمي والدراسة وعند ذلك فقد يمكننا أن نأمل في معرفة أشياء محددة عن الناس الذين سكنوها خلال أيام ازدهار حضارة الأنباط، ومن شبه المؤكد خلال عصور من هم أقدم من الأنباط.

يختلف ارتفاع القريّة قليلاً عن ارتفاع تبوك، ربما بمئتي قدم. لقد طوقت السماء سحبٌ كثيفة في ليلة وصولنا، بيد أنها انقشعت خلال الجزء الباكر من النهار التالي لتعود مرة أخرى في اليوم الذي بعده عندما تساقطت علينا قطرات قليلة من المطر. ومع ذلك كان الجو معتدلاً بصورة حسنة ومقبولة حيث وصل الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٥٢ درجة فهرنهايت. وكانت ليلتنا الثالثة أقل لطفاً بسبب الريح الرعدية العاصفة، التي بدأت خلال العصر واستمرت طول الليل كله، وهطلت علينا أمطار غزيرة قبل منتصف الليل مباشرة جعلت رفاقي يلجؤون إلى الكهوف، حيث استطاعوا -على

الأقل- أن يحتفظوا بملابسهم جافة في صحبة جماجم وعظام الأموات، ونحو الشمال كانت توجد سحبٌ رعدية كثيفة مع برق متكرر، وهبطت درجة الحرارة إلى حد أدنى قدره ٤٠ درجة فهرنهايت، ومع ذلك بزغ فجر اليوم بشكل جميل وبلا رياح في سماءٍ خالية من الغيوم. وظل اليوم جميلاً ودافئاً، بيد أن ذلك الليل (٦ فبراير) جاءنا بمزيد من هبوط في درجة الحرارة إلى حد أدنى قدره ٣٦ درجة فهرنهايت، وكان الصباح رائعاً مرة أخرى ولكنه كان بارداً نسبياً مع نسيم لطيف من الشمال، وكان من الواضح أن أحوال الشتاء كانت تقترب بالتدريج، ومع هذا كنا على وشك أن ندخل في الشتاء الحقيقي بصحراء حسمى العالية.

إن ندرة البدو الشديدة في هذه الأصقاع كانت تهدد بخلق صعوبات خطيرة في إعادة تنظيم جماعتي للرحلة التالية، التي لا أستطيع أن أشرع فيها بدون أدلاّء أكفاء، قد ازدادت مهمتي صعوبة بعودة الجماعة التي ذهبت إلى ذات الحاج بحثاً عن دليل، ليس فقط بدون دليل، ولكن أيضاً معززة بشخص يحتل منصباً هاماً ورفيعاً هو الضابط المسؤول عن مركز الحدود، الذي يُدعى ابن مزيد. وكان هدفه مناشدتي إعادة عطا الله وأصدقائه للعمل، وقلت له بكل لطف وأدب واحترام نظراً لرتبته العالية كرقيب أول ومسؤول عن مركز حدودي هام، بالرغم من أنه غير مشهور، إنّني لا أستطيع

على الأرجح أن أوافق على طلبه بسبب تجربتي الماضية مع هؤلاء البشر، وأردفت قائلاً إنه ما دام يتمتع بالطيبة الكافية حتى يخرج شخصياً إلى هنا لمساعدتي في مغامرتي فأقل ما أتوقعه منه أن يعثر لي على الأدلاء الذين أحتاجهم قبل أن أجرأ على مغادرة قريّة، حيث كنت مستعداً لقضاء ما تبقى من عمري هنا إذا كان ذلك ضرورياً. وهكذا، ومع أن الوقت كان متأخراً بعد الظهر انطلق مع عطا الله بحثاً عن مخيمات البدو التي قد تكون في المنطقة المجاورة.

وإنصافاً له يجدر بنا القول إنه عاد فيما بعد خلال الليل مع رجلين من بني عطية ليحلا محل السلمانين اللذين دفعت لهما أجرهما ورحلا وهما مبتهجان بأنهما لن يضطرا إلى الكدح معي بعد الآن. وقد ثبت أن سليمان وهويمل، خلفاءهما، كانا أكثر كفاءة بقدرٍ كبير منهما في نطاق خبرتهما المحدودة نسبياً، وقد شرفني ابن مزيدٍ بالبقاء ليلتين في مخيمنا، وبعدها غادرنا آخذاً معه عطا الله وأصدقاءه الذين لم أرهم بعد ذلك. الآن فقط استقامت مجموعتي بوجود زعل وابن دخيل، والسيد طبعاً، والدليلين الجديدين. وتنفست الصعداء بتخلصي من هؤلاء الرفاق غير الملائمين.

ومع دليليّ الجديدين عدت لزيارة الحصن لمراجعة أسماء أماكن مختلفة كان السلمانان قد أعطياني إيّاها، وكما توقعت، كان هناك بعض التصحيحات التي يجب إدخالها على ملاحظاتي السابقة.

وهذا أمر عادي جداً في استكشاف الجزيرة العربية مما يزعج المرء بشكل كبير، على الرغم من أنه يعني دائماً إعادة العمل مرة أخرى بلا ضرورة. فالجبلان الاثنان المنخفضان اللذان يقعان إلى الشمال - الغربي من تل الحصن، وكانا بلا شك يشكلان جزءاً منه في العصور الجيولوجية القديمة قبل أن تنشأ الفجوات التي تفصلهما الآن عن بعضهم البعض، قد أعيدت الآن تسميتهما لي باسم أم رقبة، وعلى مسافة بعيدة في الاتجاه الذي سوف نسير فيه بعد فترة وجيزة، أشارا إلى جبل أم العواذر الذي يمتد بينه وبين جبل عمارة العجوز على الجانب القريب منه وادي زيتة الرئيس، الذي سوف نسير فيه صاعدين تقريباً حتى منبعه في مرتفعات الهضبة.

وقد أعيد لي أيضاً تسمية كثير من القمم والجبال في هذه المنطقة؛ فالقناتان، النازلتان على التوالي من تلال غوبّى في الجنوب - الغربي وجبل سدير في اتجاه دائري نحو الغرب، كان اسمهما شعيب المسيوغ وشعيب الزنيبل اللذين يتحدان ليستمرا بالاسم الأول حتى يلتقيا بوادي الغال الذي ذكرنا سابقاً أنه يتدفق مع قنوات قريّة في سبخة الخرم المالحة، أو على الأصح الجدرية.

وكل قنوات التصريف هذه لا بد أنها قد دخلت في العصور القديمة الامتدادات المنخفضة لوادي زيتة وهي في طريقها إلى سبخة الحرضة الطينية إلى أن أدى تكوم الرمال إلى انسداد ممر كلتا الشبكتين

وخلق أحواض مالحة منفصلة لكل منهما. وعلى مقربة منا أشار الأدلاء الجدد إلى بعض الخرائب الأثرية في شعيب طرف أو بُريقة، ولكي نرى هذه الآثار نزلنا من الجهة الجنوبية للحصن، وفي وسط القناة الرملية الواسعة تماماً عند هذه النقطة، توجد جزيرة كبيرة للجنوب تماماً من خرائب قريّة، وعلى بُعد ميلين أو ثلاثة تقريباً. وتتناثر على سطح هذه الجزيرة، الذي كان في الأصل انبعاجاً للضفة اليمنى، بقايا أثرية بسيطة منها خط طويل مستقيم من القبور الدائرية، المجاورة لبعضها بعضا ومكوّنة من صخور صلبة، معظمها ممدة على الأرض مثل أجنحة النسر.

ولم نجد شيئاً ذا أهمية هنا، حيث واصلنا سيرنا مسافة قصيرة عكس اتجاه التيار حتى نتوء دائري واسع من الوادي، وهنا وجدنا دائرة من الحجارة، على مستوى سطح القناة الرملية تقريباً، وعرضها خمسة عشر قدماً من جميع الجهات وقطرها مئة قدم، ويحتمل أن تكون بقايا سور قديم حول خزان مائي قد ردمه الرمل بالكامل، وفي داخل الخزان، قرب حافته الشمالية، كان يوجد كوم دائري آخر من الحجارة أصغر من الأول، ربما يمثل مخرجاً للماء المخزون نحو اتجاه المدينة. وليس من شك في أن القدماء بقريّة كانوا يعلقون أهمية كبرى على حفظ وتوزيع المياه، التي لا بد أنها كانت تعتمد دائماً على السيول الموسمية في هذه الأودية.

وقد أخبرني أدلائي أيضاً بوجود آثار في جبال أم رقبة أو حولها. وكذلك في مكان آخر غير بعيد عنها، وقد خصصت جزءاً من اليوم التالي، وهو آخر يوم لنا في قريّة، للقيام بزيارة في هذا الاتجاه. بعد أن عبرنا وادي المسيوغ الرملي الواسع، مررنا على مقربة من جرف أم رقبة دون أن نلاحظ شيئاً ذا بال.

وسرنا أعلى رافد خريف ضباء الذي وجدنا في واديه الواسع علامات كثيرة على خنادق حجرية وأحواض زراعة مسورة وربما كانت هذه هي الآثار التي أشار إليها الدليلان، ومع ذلك، بعد أن واصلنا سيرنا لأميال قليلة صادفنا آثار قرية قديمة كبيرة، تجثم على الأرض المرتفعة في جبل خريف ضباء. وقد تسلقنا حتى الطرف الشمالي - الغربي من السور، الذي توجد فيه أبراج في الزوايا، وكانت جبال أم رقبة تقع تقريباً في الجنوب - الشرقي، في حين كان منبر شروري في الشرق تماماً تقريباً.

ويمتد السور جنوب - شرق حوالي خمسين ياردة حتى برج ثان، وعنده يسير خط الآثار شرقاً مسافة مئة ياردة، ثم يستمر في اتجاه شمال - شرق مسافة ١٠٠ ياردة أخرى حتى نهاية خط من الآثار يمتد عائداً على طول لسان المرتفع الجبلي إلى الركن الشمالي - الغربي. وهذا يكوّن مساحة مقدرة من الآثار المختلفة لمبان حجرية هائلة غير واضحة المعالم وفي حالة شديدة من التهديم حتى إنها لا تعدو أن

تكون أكثر من خليط من الحجر الصخري غير المشذب ولا يستطيع المرء فيها إلا أن يحدد عدداً من الغرف الفردية دون أي أثر للمخطط الأرضي. وقد وجدنا هنا وهناك بعض حجارة البناء المشذبة، وقليلاً من رقائق الصوان، وبعض المحار البحري، وبعض كسر الأواني الفخارية والعادية جداً، وكان الامتداد الشمالي لمنطقة الآثار هذه مفصولاً بواد ضيق أو خليج صغير (به بعض علامات على سد مهدم) عن مجموعة أخرى من الآثار على مرتفع جبلي مماثل، يمتد من نقطة تقريباً إلى الغرب منا مباشرة حتى نقطة أخرى باتجاه الشمال تماماً، وكانت تبدو أنها لا تستحق الزيارة، ولكني أرسلت هويمل ليبلغنا عنها، ولم يجد شيئاً ذا بال إلا قلة من الرسومات المخربشة للوعول على الصخور.

ومن الواضح أن هذه القرية كانت قائمة على الزراعة في الأودية المجاورة، ومظهرها البائس يوحي بأن سكانها كانوا عبيداً يحرثون الأرض لسادتهم الأنباط. وقد عدنا بطريق مباشرة بشكل أساسي عبر قناة خريف (أو ربما حريف) ضباء ونطاق واسع من التلال الرملية المنخفضة حتى وادي المسيوغ العريض، الذي كان بالجهة القريبة منه علامات كثيرة دالة على الزراعة القديمة، التي يبدو من الواضح أنها كانت تعتمد على قناة تحت الأرض من نوع الكريز والتي كان من السهل تتبع آثارها مسافة في كلا الاتجاهين عن طريق

خط من فتحات تنظيف القناة (بالوعات). ولقد حاول العرب المعاصرون في أحيان كثيرة تتبع فتحات البالوعات هذه حتى مصدر النبع الذي لابد أن الأقدمين كانوا يسحبون منه ماءهم، بيد أنهم لم يحققوا أبداً أي نجاح. ومع ذلك يصعب علينا أن نشكك ولو قليلاً في أن الازدهار القديم لهذه المنطقة، بقليل من المشاريع والمصروفات، يمكن استعادته لصالح سكانها البؤساء نسبياً، الذين لم يعد يُسمح لهم باقتناص الحجاج ونهبهم أو أي حركة أخرى غير شرعية.

ولقد أخبرني دليلاي عن آثار مشابهة لتلك الموجودة في خريف ضباء في أم العواذر (أي المكان القفر)، وإلى هناك ذهبنا في اليوم التالي (٧ فبراير) عندما غادرنا قريّة نهائياً، وقد اتجهنا شمال - شمال - غرب نحو الطرف الأيمن من جبل عمارة العجوز، عابرين البقعة الرملية بين المسيوغ وحوض قريّة، ثم انحدرنا عبر قاع المسيوغ الوعر نسبياً، وعبر التقائه بشعيب خريف ضباء، حتى وصلنا إلى رف ذي أرض سيئة شديدة الوعورة من الحجر الرملي المفكك، وهو ناتئ من خط عمارة العجوز، وهذا مما جعلنا نقاسي عشر دقائق من الارتجاج المزعج أثناء تقدمنا لعبور رافد شعيب الطف حتى وصلنا مسار السيارات الرئيس، الممتد على طول الضفة اليمنى لشعيب غال. وبعد أن استدرنا الآن بصورة أكبر إلى الشمال - الغربي على طول

القناة، التي عبرناها بعد مسافة أميال قليلة لنجعل جبل الذيابية عن يسارنا، سرعان ما وصلنا إلى وادي زيتة الواسع، هنا يلتقي طريق السيارات القادم من ذات الحاج مع طريقنا، الذي يستمر على طول الضفة اليمنى للوادي، بيد أننا ضربنا في دلتاه الفسيحة، العامرة بمخلفات الزراعة القديمة، وقنوات الكريز المهدمة واتجهنا نحو جبل أم العواذر (أو أم العويذر) ونتوءاته من الحجر الرملي على الضفة اليسرى، ووجدنا أمام الجبل مباشرة عدداً من النتوءات المرتفعة قليلاً من الحجر الرملي تتوجها آثارٌ تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في خريف ضباء، وقد اخترت أكبر هذه الآثار لفحصها بالتفصيل. يرتفع هذا البناء نحو ١٠٠ قدم، وطوله ٥٠٠ ياردة من الشمال - الغربي إلى الجنوب - الشرقي، وعرضه ٢٥٠ ياردة تقريباً على القمة. والتل الثاني يبعد نحو ٦٠٠ ياردة إلى الشرق، وثالث نحو ٥٠٠ ياردة إلى الجنوب - جنوب - غرب، ورابع على بعد ٥٠٠ ياردة للغرب.

من الواضح أن هذه المواقع الأربعة كانت تشكل مستوطنة واحدة، تسكنها عناصر مختلفة من قبيلة واحدة من المزارعين، وتمتد قناة أم العواذر على امتداد الضلع الجنوبي لوادي زيتة، في حين يفعل شعيب السعيدي الشيء نفسه على الضلع الشمالي. وعند هذه النقطة تسد تلال الزلاقة وتلال المندفنة الرملية الطرف الأسفل لوادي

زيتة إذ ينبسط في دلتا واسعة شبه دائرية، الجزء الأكبر منها عبارة عن سبخة طينية مالحة. وقد قدّر لنا أن نرى كثيراً من هذه الآثار على طول قمة الجبل الرئيس على الضفة اليمنى، ولا بد أن السكان القدماء المعنيين بتطوير هذا الحوض كان عددهم ضخماً. ولسوء الحظ كانت الآثار فوق تلنا رديئة تماماً، ولم نجد شيئاً ذا بال بين البقايا المتهدمة من بيوت مبنية بالحجارة لابد أنها لم تكن أكثر من مجرد مأوى لمجموعات العبيد، الذين كانوا ينهمكون في إنتاج الطعام لسادتهم. ليس هناك علامة واحدة في المكان توحي بأي قدر من الحضارة بين سكان هذه الأكواخ الحجرية التي يبدو أنها قد انهارت أشلاء نتيجة لهجرها وليس نتيجة لأي كارثة طبيعية.

وبدا من غير المجدي فحص المجموعات الأصغر منها في التلال الأخرى، وبعد أن شققنا طريقنا نحو الجنوب تماماً التقينا مرة أخرى بدرب السيارات في حوالي عشر دقائق، بعد أن مررنا عبر جبل منخفض يفصل قناة أم العواذر عن قاع وادي زيتة، الذي كانت توجد فيه بقايا سد قديم. وواصلنا الآن سيرنا في وادي زيتة، الذي أصبح بشكل متزايد رملياً ووعراً كلما تقدمنا فيه، وبعد حوالي خمسة أميال ضاق الوادي كأنه ممر، يتراوح عرضه بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ ياردة، والذي كان معلماً لخروجنا من منطقة أرض لح المنخفضة إلى أرض حسمى المرتفعة. وعلى يميننا يقع الامتداد

المنخفض المغطى بالرمل لجبل العواذر، بينما كان جبل السويلمية المنخفض يطبق علينا من اليسار، وبعد ذلك فوراً غرزنا بالسيارة بصورة سيئة في الرمل العميق فقضيت الوقت الذي استغرقه أصحابي في استخراج الشاحنة من هذا الرمل في محاولة تحديد موقعنا قبل أن ندخل في التلال البعيدة عن العلامات الأرضية التي كانت توجهنا حتى الآن. وعندما شقت الشاحنة طريقها بصعوبة وهي خارجة من سجنها الرملي انضممت إليها على مسافة غير بعيدة عن النقطة التي كنت أجري ملاحظتي منها. وعندها اكتشفت أن بوصلتي قد ضاعت.

لقد تجولت بقدرٍ كبير في منطقة رملية تنتشر فيها النباتات الصحراوية، حيث وجدت صعوبة في اقتفاء متاهة أثر أقدامي عائداً إلى النقطة التي كنت قد وضعت فيها الجهاز (البوصلة) في أثناء تدوين ملاحظاتي النهائية. وهكذا خرجنا من لح إلى مرتفعات حسمى.